مقاربة في «نظرية النظم» بين سيبويه والجرجاني

وهدان وهدان

اكتسب سيبويه شهرة عظيمة في تاريخ المعرفة الإسلامية بكتابه في النحو، لما اشتمل عليه من قواعد نحوية، أصبحت ضرورية لضبط اللغة العربية والحفاظ على سلامتها، معرفة وأداء.. والحقيقة أن كتاب سيبويه، كان وما زال أخلد كتاب في نحو العربية وصرفها وأصواتها.. إلا أن تصفح بعض ما أنجز حول الكتاب من دراسات وبحوث، يوحي بأن جوهر جهد الرجل لم يفهم، فوقف التقييم لمجهوده عند حدود اعتباره مسجلاً لأصول

كاتب سوري

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

النحـــو العربي وقواعـــده وحسب!.. وبذلك يتم الإجهاز علـــى مضمون أخطر مصطلح يشتغل عليه سيبويه وهو النحو.

والنحو عند سيبويه، كما أريد له، لم يكن مجـــرد إعراب لأواخر الكلمات وما فيها من رفـــع، ونصب، وجر، وجـــزم.. بل كان ينظر إليـــه في ترابط مـــع بقية العلـــوم وخاصة البلاغة، ومن ثم يكتسب النحو روحاً مشعة لها جلالها وقيمتها الفنية والجمالية، وهذا مـــا سيطـــور إلى أقصى درجاتـــه التعبيرية مـــع الإمام عبد القاهـــر الجرجاني، والذي سيتحـــول معه النحـــو إلى وسيلة من وسائل التصويـــر اللفظـــي، ومظهراً مـــن مظاهر البراعة البلاغيـــة، لا إعراباً جافاً كما نجد في كتـــب النحو الخالصة، فمحـــور سيبويه - الجرجـــاني إذن، متكامل، ومنسجم يكمل الأول فيـــه الثاني ومن هنـــا تأتي مشروعية الورقة في الحديث عـــن النظم بين سيبويه والجرجاني.

وموضوعنا هـــذا، باعتبـــاره ورقة، من مهامه المنهجية، على إثارة أسئلة استفزازية أكثر ممـــا يحاول تقديم معلومات، أو يعطي أجوبـــة تقريرية، ويرمي بمـــا توفره له من قدرة على الحشد والبنـــاء الاستدلالي، إلى الإجهاز علـــى بعض المسلمـــات، الصريحة والضمنيـــة، التـــي حكمت المســـار النقدي والبلاغي العربي، مـــن نحو أن عبد القادر الجرجاني هو مبتكر نظرية النظم، وأنها من بنات أفكاره، وحتـــى إذا ما أشير إلى جهود سابقيـــه، كالجاحظ (٢٥٥هـــ)، أو القاضي عبد الجبـــار (٤١٥هـ) فكثيراً ما يغيب رجل عظيـــم، كان في اعتقادنا، المؤسس الحقيقي لنظريـــة النظم، والواضع الأول لمفرداتها في صمت: إنه سيبويـــه عمرو بن عثمان (١٨٠ هـ)، إمام النحاة.

النظم عند سيبويه:

حقيقـــة، كان اهتمـــام سيبويه الأول في الكتاب هـــو وضع القواعد العلمية النحوية، وليس الوقوف على الأسس الفنية البلاغية، وحتـــى في إشاراتـــه البلاغيـــة المتناثرة في الكتـــاب، لم يذكرها كقوانـــين ومصطلحات كما عرفناها بعده. إلا أن نظرية النظم كما اكتملت مع عبد القاهر الجرجاني أو كادت، ساهم فيها سيبويـــه بقسط وافر، بما ذكره مـــن موضوعات تدخـــل في صلب ما عرف فيمـــا بعد بعلم المعاني، مـــن حذف وزيادة، وذكر وإضمار، وتقـــديم وتأخير، واستفهام، وقصر، وفصـــل ووصل.. هذه المباحث، كما

جاءت في الكتاب شكلت «النصوص الغائبة» أو «المواجهة» للجرجاني وهو منكب على صياغة نظريته.

وإذا كان اهتمام النحاة القدماء منحصراً في أثر العوامل وما يعقبها من حركات الإعراب.. ففي مواضع كثيرة من الكتاب[١] نلمح سيبويه يهتم بالتركيب، والتأليف بين الكلمات والجمل، وصوغ العبارات والحسن والقبح فيها. إن سيبويه إذاً، لا يكتفي بتسجيل قواعد النحو، وإنما يلاحظ ويتأمل، ويقدم تحليلاً رائعاً، يبين دقة حسه بفقه اللغة، وأساليبها وأسرار بلاغتها وتراكيبها.. ويحاول الوقوف عند خواص معانيها. وفي إطار هذه الدراسة المقارنة بين سيبويه والجرجاني سنكتفي بالإشارة إلى بعض الأمثلة التي ساقها كلا العالمين، دليلاً على اهتمامهما المشترك بالنظم، دون أن يعني ذلك أننا استقصينا الأمثلة كلها والأماكن جميعها، أو حتى استوعبنا ذلك أو تمثلناه.. وعذرنا ضعفنا وقصورنا.

سيبويه والجرجاني.. من النحو إلى النظم:

إن تدبر «دلائل الإعجاز» الذي وضع فيه عبد القاهر نظرية النظم، وفصلها واحتج لها، يجعلنا نخرج بخلاصة تقول: إن «النظم» عنده يعني: «معاني النحو وأحكامه» فالنحو إذا يعد من أهم أسس منهجه وأخطرها، بل وأغمضها في أذهان الكثيرين، حتى صعب تصور ما يقصده عبد القاهر بهذا المصطلح، يقول في المدخل إلى «دلائل الإعجاز» هذا كلام وجيز يطلع به الناظر على أصول النحو جملة، وكل ما به يكون النظم دفعة [٢] هذا هو مسوّغ اختيار عنوان «سيبويه والجرجاني: من النحو إلى النظم» فالعلاقة بين النحو والنظم، تصادفنا في عدد كثير من صفحات «دلائل الإعجاز» فقد استفاد عبد القاهر إذن من النحو، وهو من شيوخه، في إرساء قواعد نظريته، واعتبره أصلاً ضرورياً في النظم، بل ويشدد النكير على من يزهد فيه، يقول: «وأما زهدهم في النحو واحتقارهم له، وإصغارهم أمره، وتعاونهم به، فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدم، وأشبه بأن يكون صداً عن كتاب الله، وعن معرفة معانيه، ذلك لأنهم لا يجدون بداً من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه» [٣].

وممن استفاد منهم الجرجاني، في مجهوده من النحاة سيبويه [٤] فقد أخذ عنه

خصائص التعبير، وما يصلح به الكلام ويفسد، إلا أن براعة الجرجاني تتجلى في استفادته من جهد سيبويه وغيره من النحاة وتطويره، فأسس بذلك مشروعاً جمالياً يستمد عمقه من النحو، سرعان ما سيجهض بفضل النحو عن البلاغة، لتدخل هذه الأخيرة في تعقيدات فلسفية، وأقيسة منطقية، سيفقد النص، بموجبها، قيمه الفنية والجمالية، ويصاب بالجفاف والعقم في زمن الانحدار [٥].

ورغم أن كتاب سيبويه يتميز، في عمومه، بإيجاز العبارة وغموض الفكرة، مما يسبب بعض التعب والملل أثناء القراءة، إلا أنه يشتمل على عدد غير قليل من الالتفاتات البلاغية والغنية، ذكر الجرجاني بعضها صراحة منها:

ظاهرة الحذف:

قال سيبويه في «باب يحذف منه الفعل لكثرته في كلامهم حتى صار بمنزلة «المثل» في قول الشاعر:

فكرت تبتغيه فوافقته
على دمه ومصرعه السباعا

وقول آخر:

لن تراها ولو تأملت إلا
ولها في مفارق الرأس طيبا

قال: «وإنما نصب هذا لأنه حينما قال: وافقته وقال: لن تراها، فقد علم الطيب والسباع قد دخلا في الرؤية والموافقة، وأنهما قد اشتملا على ما بعدهما في

المعنـــى»[٦]. إن سيبويـــه في تناوله للحذف، لا يكتفي بعرضه عرضـــاً شكلياً محضاً، بل يضيف بأنه فصيح تحدث به الفصحاء من العـــرب، ويحتوي على أســـرار بلاغية، فهم يحذفون مرة إيجازاً، وأخرى تخفيفاً، ويشير أيضـــاً إلى أن عادة العرب جرت على إلحاق التنويـــن بالخفيف من الكلمات، وحذفه من الثقيل، لأن التنوين يزيـــد الكلام ثقلاً، ولا يريـــدون أن يزيدون ثقلاً على ثقل، والعرب على العمـــوم -حسب سيبويه- تحذف طلباً لخفة اللســـان، واتساعاً في الكلام.. فيكون بذلك سيبويه من الرواد الذين مهدوا لتناول الحذف، وبيان مواضعه وأسراره. كما أشار إلى الذكر والإضمار في التعبير الكلامي.

أما الجرجاني فقد عقد فصلاً للحذف في «الدلائـــل» مسترشـــداً بـــآراء سيبويـــه، مناقشا بعضها، ويقول في الحذف: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تـــبن»[٧]. ويفصل عبـــد القاهر القول في حذف المبتدأ، وحـــذف الفعل وإضماره، ويمثل لذلك، وكذا حذف الفاعل والمفعول، وكذا الحذف الخفـــي، والزيادة في الكلام. ويرى عبـــد القاهـــر، على غـــرار سيبويه، أن افتقـــار المخاطـــب إلى التأكيد والتقوية، حينما يكون متردداً في الحكم، أو منكراً له، ويستدعي زيادة واضحة المغزى، ذات غرض بلاغي دقيق.

التقـديم والتأخـير بـين سيبويـه والجرجاني:

يعتـــبر سيبويه أول مـــن كشف عن السر البلاغي في التقـــديم والتأخير، فالنحويون قبلـــه كانـــوا يقفـــون عند حـــدود الوصف الشكلي. المحض لعملية التقديم والتأخير، أما سيبويه فكان يراها طلباً للعناية والاهتمام، وأطـــال الحديـــث في التقـــديم والتأخير في بـــاب ظـــن وكســـي، وإن، وكان والظروف، وكشف عن نكـــت بلاغية في الموضوع، ظلت معتمـــد البلاغيين الذين أتـــوا بعده. يقول: «والتقـــديم ههنا والتأخير، فيما يكون ظرفاً أو يكون اسمـــاً، في العناية والاهتمام، مثله في ما ذكرت لك في بـــاب الفاعل والمفعول، وجميـــع ما ذكرت لك من التقديم والتأخير، والإلغاء والاستقرار، عربي جيد، فمن ذلك قوله عز وجل «وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ»، وأهل الجفـــاء من العـــرب يقولـــون: ولم يكن كفواً

له أحـد كأنهـم أخروها حيـث كانت غير مستقـرة» [٨]. قـد نلاحظ للوهلـة الأولى قصـور تصور سيبويه لسـر التقديم، وهذا ما دفع الجرجاني بالفعل للاستدراك عليه، واستكناه الأسرار البلاغية البعيدة للتقديم، فيكون بذلك جهد الجرجاني تتمة لما ابتدأه سيبويـه: جاء في «الدلائل» في فصل «القول في التقديم والتأخـير»: واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل، غير العناية والاهتمام، قال صاحب الكتاب، وهو يذكر الفاعل والمفعول: (كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهـم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم)، ولم يذكر في ذلك مثـالاً (..) وقد في ظنـون الناس أنه يكفي أن يقـال (إنه قدم للعنايـة وذكره أهم) من غـير أن يذكر، من أين كانـت تلك العناية؟ وبم كانـت أهم؟ ولتخيلهـم ذلك، قد صغر أمـر (التقديم والتأخير) في نفوسهم وهونوا الخطـب فيه، حتى إنك لـترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضرباً من التكلف»[٩] وبعد هذا التعقيب، ينطلق الجرجاني في تفصيل مواضـع التقديم والتأخـير، في الاستفهام، والنفـي والخبر، ويختم بفصـل عن النكرة وتقديمها في الاستفهـام، أو الخبر ومعناه، حيـث يلتقي في الأخير مـع سيبويه ويقول: «وإذا اعتـبرت ما قدمته مـن قول صاحب الكتاب (إنما قلت «عبد الله» فنبهته له، ثم بنيت عليه الفعل) وجدته يطابق هذا، وذلك أن التنبيـه لا يكون إلا علـى معلوم، كما أن قصـر الفعل لا يكون إلا علـى معلوم، فإذا بـدأت بالنكرة فقلت «رجل» وأنت لا تقصد الجنسـ، وأن تعلم السامـع أن الذي أردت بالحديث رجل لا امرأة، كان محال أن تقول (إني قدمتـه لأنبه المخاطب له)، لأنه يخرج بـك إلى أن تقول: إني أردت أن أنبه السامع لشـيء لا يعلمه في جملة ولا تفصيل، وذلك مالا يشك في استحالته، فأعرفه» [١٠].

إن التقـديم والتأخـير إذن يأتيان عند سيبويه والجرجاني، للعنايـة والاهتمام، أو للتأكيد والتنبيه، وقد يأتيان لغير علة بلاغية، ويكونـان سببـاً في قبح الـكلام، واختلال التركيب، فكثيرة إذن، هي الإشارات البلاغية «الغفل» عنـد سيبويه، تلقفهـا الجرجاني، وأعمـل فيهـا ذوقـه وحسـه، وصاغها في قالب جمالي رفيـع. إن ضيق مجال الورقة، لا يسمـح بطرق كثير من المجالات البلاغية التـي كان لسيبويه السبق والريادة فيها، من نحو خروج الاستفهام عن معناه، والنداء عن

أصله وإفادته الاستغاثة والندبة.. واستعمال الخبر بمعنى الإنشاء والطلب موضع الخبر والعكس، واختصر سيبويه الكلام في القصر بما يفيد، فتحدث عن النفي والاستثناء والعطف، وذكر الفصل والوصل، ولم يكن حديثه نحوياً جافاً، ولكن بلاغياً مرهفاً، نحس فيه ذوقاً وجمالاً وروعة.. مما سيستفيد منه عبد القاهر أيما استفادة، فيعمقه ويخرجه في صورة أخاذة. ولا يفوتنا أن نشير إلى أن سيبويه اهتم بالحسن والقبح في التعبير، ففي حديثه عن الفصل، ذكر مواضع يحسن فيها، وأخرى يقبح فيها، فلو قلت: «كان زيد هو منطلقاً، كان قبيحاً»، كان يراعي تأليف الكلام وحسن النظم القائم على توخي معاني النحو، يقول في «باب الاستقامة من الكلام والإحالة»: «فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب».[11] إن وضع الألفاظ في غير موضعها دليل عند سيبويه على قبح النظم وفساده، ونجد في مواضع كثيرة من الكتاب حديثاً عن تأليف العبارة، وتركيب الكلام وكلاماً كثيراً له علاقة بالنظم، مما يعسر تعقبه في هذه العجالة، كل هذا يجعلنا نخرج بخلاصات كالآتي:

١- النحو عند سيبويه، كما عند الجرجاني، لم يكن مجرد إعراب أواخر الكلمات.

٢- انطلق سيبويه والجرجاني من إطار تصوري واحد، وهو عدم الفصل بين النحو والبلاغة.

٣- لم يتعد النحو عند سيبويه والجرجاني، البحث في الجملة وكلماتها.

٤- يلتقي كتاب سيبويه ودلائل الإعجاز منهجياً في ضعف الارتباط بين الأجزاء، والتكرار الممل، والخوض، في بعض الأحيان، في الجدل العقلي وبناء الأمثلة المصنوعة.. مما يقلل من جمالية التحليل.

خلاصة عامة:

إذا كانت نظرية النظم، قد عرفت اكتمالها مع عبد القاهر الجرجاني، كنظرية جمالية (استيطيقية) متميزة في النقد العربي، فإن سيبويه هو واضع حجرها الأساس، ومبتكرها بدءاً. إلا أن قوة شخصية الجرجاني، وشهرة كتابه «دلائل الإعجاز» غطيا على سيبويه ومجهوده في النظم، ليتراجع إلى الخلف في صمت.

الهوامش :

١- سيبويه، الكتاب (سيكون تركيزنا على الجزء الأول فقط، لعدم قدرتنا على تتبع كل مباحث الكتاب) انظر الجزء الأول صفحات: ٢٥، ٢٦، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٧٠، ٨٠، ٨١، ٩٦، ١٢٠، ١٢٧، ١٣٨، ١٧٥، ١٧٦، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٥٣، ٣٣٤، ٣٤٣.

٢- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، المدخل ص٣.

٣- نفسه ص٢٨.

٤- انظر حضور سيبويه في دلائل الإعجاز في الصفحات: ١٠٧، ١٣١، ١٤٥، ١٤٦.

٥- انظر السكاكي. مفتاح العلوم، القسم الثالث: علما المعاني والبيان (ص١٦١-٤٣٢).

٦- سيبويه، الكتاب ج ١، ص٢٨٤-٢٨٥.

٧- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٤٦.

٨- سيبويه، الكتاب ج ١، ص٥٦.

٩- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٠٧-١٠٨.

١٠-نفسه ص١٤٤.

١١-سيبويه الكتاب ج ١، ص٢٥-٢٦.